محاضرة مناهج المحدثين

قسم علوم القرآن

كلية التربية للبنات

مدرسة المادة :

الأستاذ المساعد الدكتورة : انوار زهير نوري

مناهج المحدثين :

المقصود بمناهج المحدثين: الطرق التي سلكها الأئمة المحدثون في رواية الأحاديث، والتعليق عليها، وتصنيفها، بحسب شروط معينة، أو بمعنى آخر: أصولهم في نقدهم الرواة ومروياتهم، واصطلاحاتهم في فنهم، وشروطهم في تصنيف كتبهم، وموارادهم فيها، وكل ما يتعلق بهذه المسائل.

كانت بداية التدوين والتصنيف في زمن التابعين، وكان أول من صنف في الإسلام ابن جريج، وقيل: مالك بن أنس للموطأ، وقيل: الربيع بن صبيح، ثم جاء البخاري ومسلم والدارمي وأبو داود والنسائي وابن ماجة وأحمد، فكان لكل منهم طريقةً ومنهجاً في جمع السنة وتصنيفها.

فمن المصنفين من قصرت همته على تدوين الحديث مطلقا؛ ليحفظ لفظه ويستنبط منه الحكم، كما فعل الإمام أبو داود الطيالسي وعبد الله بن موسى الضبي وغيرهما.

ومنهم من أثبت الأحاديث في مسانيد رواتها، فيذكر مسند أبي بكر الصديق ﷺ ويثبت فيه كل ما رواه عنه، ثم يذكر عمر بن الخطاب ﷺ ، ومسند الامام علي بن ابي طالب ﷺ ، وهكذا واحدا بعد واحد، كما فعل الإمامان أحمد بن حنبل والحميدي وغيرهما.

ومنهم من يُثبت الأحاديث في الأماكن التي هي دليل عليها، فيجمع الأحاديث تحت الأبواب، فإن كان الحديث في معنى الطهارة ذكره في باب الطهارة، وإن كان في معنى الصلاة ذكره في باب الصلاة، كما فعل الإمام مالك في الموطأ، واقتدى به من بعده كالبخاري ومسلم، وكذا أصحاب السنن كأبي داود والترمذي وغيرهما.

ومنهم من استخرج الأحاديث التي تتضمن ألفاظا لغوية ومعاني مشكلة، فوضع لها كتابا قصره على ذكر متن الحديث وشرح غريبه وإعرابه، ولم يتعرض لذكر الأحكام، كما فعل الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه (غريب الحديث)، ومحمد بن قتيبة.

ومنهم من ذكر الأحكام وآراء الفقهاء، كما فعل الإمام الخطابي في معالم السنن، ومنهم من قصد ذكر الغريب دون متن الحديث، كما فعل الإمام أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي وغيره.

ومنهم من قصد استخراج أحاديث تتضمن الترغيب والترهيب، وأحاديث تتضمن أحكاما شرعية، فدوّنها وفق ترتيب معين، كما فعل أبو محمد البغوي في المصابيح.

أنواع مناهج المحدثين:

يمكن تقسيم مناهج المحدثين باعتبارات متعددة، منها:

١- العموم والخصوص: حيث توجد مناهج عامة اتبعها جميع المحدثين في الرواية والتحمل والكتابة ونحو ذلك، ومناهج خاصة تتعلق بشروط كل إمام في الأسانيد والمتون التي أوردها في مصنفه.

٢- التقدم والتأخر: حيث اعتمد الأئمة المتقدمون أسلوبا وطريقة تناسب قِصَر أسانيدهم وزيادة ضبطهم، وسار الأئمة المتأخرون على منهاج مغاير لذلك، يتوافق مع طول الأسانيد وقلة الضبط ونحو ذلك.

٣- التشدد والتساهل: لم يتفق الأئمة المحدثون على منهج واحد في التصنيف أو في الحكم على الرجال بالضبط أو العدالة وغير ذلك، وإنما تنوعت مناهجهم وتباينت، وعندما تمت المقارنة بين كتبهم وأحكامهم على الرجال وجدنا منهم المتشدد والمعتدل والمتساهل.

فوائد معرفة مناهج المحدثين:

١- الوقوف على طريقة اختيار الأحاديث وترتيبها بالنسبة إلى بعضها، حيث يفيدنا ذلك في معرفة الناسخ من المنسوخ، والراجح من المرجوح، وطرق الجمع بين الأحاديث المختلفة، وشرح الغريب، وذلك بمقارنة الروايات ببعضها، وتمييز المدرج في الحديث من نص الحديث.

٢- التعرف على شروط الأئمة أصحاب المصنفات، وتمييز المعتدل من المتشدد والمتساهل منهم، فما يصححه ابن حبان قد لا يصححه البخاري، وما يصححه الحاكم قد لا يوافقه على تصحيحه الذهبي أو غيره.

٣- معرفة الطرق التي تم بها تحمُّل كل حديث وأداؤه، سماعا أو عرضا أو إجازة أو وجادة أو غير ذلك من طرق التحمل والأداء، وذلك يفيد في معرفة المتصل والمنقطع ونحو ذلك.

٤- معرفة مكانة ومنزلة أصحاب المصنفات، والوقوف على ما بذلوه من جهد في رواية الحديث ونقده.

٥- معرفة طرق التصنيف، حيث يفيد ذلك في معرفة طرق تخريج الأحاديث، كما أن معرفة مناهج المحدثين في تدوين الحديث وضبطه يفيدنا كثيرا في تحقيق المخطوطات الحديثية.

٦- تنمية الفكر العلمي والمنهجي، وصقل مهارة البحث، وإيجاد روح الإبداع والرغبة في التطوير وفق أسس علمية مدروسة ومناهج دقيقة.

وسنحاول أن نعرض إن شاء الله لبعض مناهجهم من خلال هذه الاعتبارات بشيء من التفصيل والبيان، والله الموفق وعليه التكلان.

المناهج العامة للمحدثين :

رغم تنوع مناهج المحدثين واختلاف أساليبهم وطرقهم، إلا أنهم اتفقوا على مبادئ ومناهج لم يحيدوا عنها، ورغم أنهم لم يدونوا تلك المناهج أو يسطِّروها في كتبهم، إلا أنهم ورثوها عمليا لطلابهم ومن أتى بعدهم، فصارت تلك المناهج سمة للمشتغلين بهذا الفن الجليل، يأخذه اللاحق عن السابق، وهذا لم ينف وجود مناهج خاصة لكل إمام منهم، التزم بها وسلكها في مروياته أو مصنفاته، وحسبنا في هذا المقال أن نقف على مناهجهم العامة التي اتفقوا عليها، ثم نُعرِّج فيما بعد على مناهجهم الخاصة.

يقصد بالمناهج العامة للمحدثين: الأساليب والطرق التي سلكها جميع المحدثين أو اتفقوا عليها في طلب الحديث أو روايته أو كتابته وضبطه أو تحمله وأدائه، وسوف نتعرض لأبرز تلك المناهج وفق النقاط التالية:

أولا: منهجهم في طلب الحديث:

١- إخلاص النية في طلب الحديث الشريف: كان المحدثون يحثون طلبة الحديث على إخلاص النية لله جل وعلا في طلب الحديث، حتى يحذَروا من الدخول في قول النبي ﷺ : (من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلّمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة -أي ريحها- يوم القيامة) رواه أبو داود وابن ماجه.

٢- التدرج في طلب الحديث والصبر عليه: دأب المحدثون على البدء بصغار العلم قبل كباره، والتدرج في الطلب، وكان الإمام الزهري يقول: "من طلب العلم جملة فاته جملة، وإنما يُدرك العلم حديثٌ وحديثان"، وقال أيضا: "إن هذا العلم إن أخذته بالمكابرة له غلبك، ولكن خذه مع الأيام والليالي أخذاً رفيقاً تظفر به"، وقال معمر

بن راشد: "من طلب الحديث جملة ذهب منه جملة، إنما كنا نطلب حديثاً وحديثين"، ويقول الإمام النووي: "وينبغي أن يقدّم -أي طالب الحديث- العناية بالصحيحين، ثم سنن أبي داود والترمذي والنسائي، ضبطاً لمشكلها وفهماً لخفي معانيها.. "، ويجدر بكل من طلب الحديث أن يرجع إلى كتاب الخطيب البغدادي "الرحلة في طلب الحديث"، وإلى كتاب الشيخ عبد الفتاح أبو غدة "صفحات من صبر العلماء".

٣- العمل بالعلم: كانوا يعملون بكل ما يروون من الأحاديث، قال الإمام ابن الصلاح: "وليستعمل ما يسمعه من الأحاديث الواردة بالصلاة والتسبيح وغيرهما من الأعمال الصالحة، فذلك زكاة الحديث"، وقال وكيع: "إذا أردت أن تحفظ الحديث فاعمل به".

٤- الحفظ والاستظهار: كانوا يعتمدون على الحفظ في تلقي الحديث، قال الإمام الأوزاعي: "ما زال هذا العلم عزيزاً تلقّاه الرجال، حتى وقع في الصحف فحمله ودخل فيه من هو غير أهل له"، وقال هُشيم بن بشير: "من لم يحفظ الحديث فليس هو من أصحاب الحديث"، ولا يعني هذا إهمال الكتابة، قال الخليل: "ما سمعت شيئا إلا كتبته، ولا كتبته إلا حفظته، وما حفظته إلا نفعني".

٥- المناصحة وبذل الفائدة: حث المحدثون طلبة الحديث على المناصحة، وإفادة بعضهم بعضا، قال عبد الله بن المبارك: "إن أول منفعة الحديث أن يفيد بعضكم بعضا".

٦- تعظيم المحدث وتبجيله: كانوا يجلُّون المحدث لما في صدره من العلم، قال الإمام النووي: "وينبغي أن يعظِّم شيخه ومن يسمعُ منه، فذلك من إجلال العلم، وبه يُفتح على الإنسان، وينبغي أن يعتقد جلالة شيخه ورُجحانه، ويتحرّى رضاه، فذلك أعظم الطرق إلى الانتفاع به".